



حوار مع أتباع الفلسفات الوضعية

الشيخ/ بدر الحسن القاسمي
نائب رئيس مجمع الفقه
الإسلامي بالهند





مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فمن الواضح للعيان أن «الفلسفات الوضعية» فشلت فشلاً ذريعاً في إسعاد البشرية، فكلما أرادت تلك الأفكار حل مشكلة فكرية، أو اقتصادية أو اجتماعية؛ تعقدت تلك المشكلة، وتحولت من حالة إلى ظاهرة، ومن ظاهرة إلى أزمة، وكلما أريد علاجها اتسع الخرق على الراقع، وبدأ المجتمع الإنساني يئن منها.

والسبب في ذلك أنها جعلت التفكير الإنساني وحده أساساً لحل كافة مشكلات الحياة الإنسانية المادية والروحية، واستغنت عن الوحي الإلهي تماماً، أو مالت إلى ممارسات وطقوس تراكمت عبر القرون بسبب الجهل والخضوع أمام مظاهر الكائنات.

ومن المعلوم أن الإنسان لا يملك عقلاً محضاً، بل إنه يحمل أيضاً من العواطف والأهواء ما يدفعه إلى الخير حيناً وإلى الشر في أحيان كثيرة، ولا يتصور «عقل محض» غير خاضع أو متأثر من الأهواء أو الظروف والأوضاع.

إن «النبوة» وراء طور العقل والتفكير، فالحقائق التي يعجز العقل عن إدراكها تأتي النبوة لتثبتها وتحققها، من أجل ذلك ربط الله سبحانه وتعالى إرشاد البشرية بالأنبياء، فأرسل الرسل وأنزل الكتب من السماء.



إن العقل نعمة عظيمة وجوهرة نفيسة، وفيه سر تكليف الإنسان؛ لكنه غير كاف لإرشاد الإنسان إلى مصالحه في الدارين وفي كتاب «نقد العقل الخالص» (Critique Of Pure Reason) للفيلسوف الألماني عما نويل كانت (Emanuel Kant) الذي نشره عام ١٧٨١م أكبر دليل على ذلك، وكان الكتاب قد أحدث ضجة كبيرة في الأوساط العلمية وهزة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية، وقيل عنه: إن هذا الكتاب قطعة حية خالدة تدل على عظمة الفلسفة وكمالها، أضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرته^(١).

يقول كانت (Kant): «إن الفكر يبدأ بمهمته بالدعاوي، ويعتمد على صحة مقدماته ومفروضاته وطاقاته، ويكون على ثقة بأنه حلّ جميع المسائل ووصل إلى كنه الكون.

ثم يأتي عليه زمان يتجلى فيه أن هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب، ولا تسمو إلى الأفلاك، ثم تبدأ فترة الارتباب والتشكيك.

لذا يجب علينا البحث في عقولنا، وإدراكنا، وماهية علمنا، ونوعيته، حتى نكشف عن نوع الصور والقوى التي نتمتع بها لفهم الأشياء وإدراكها؛ وإلى أي مدى نستطيع أن نسير في ضوئها»^(٢).

ولم يكن الفيلسوف الألماني كانت (Kant) هو أول من انتقد العقل الإنساني واستبعد وجود «العقل المحض» بل قد سبقه علماء المسلمين

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٨/٢.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص: ٣٠ - ٣١.



الاعلام في نقد العقل المحض يقول العلامة المؤرخ ابن خلدون موضحاً حقيقة العقل وقدرته على إدراك الحقائق: «فاتهم إدراكك ومدركاتك في الحصر، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك؛ فهو أحرص على سعادتك، وأعلم بما ينفعك، لأنه من طور فوق إدراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك، وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه؛ بل العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فيطمع أن يزن به الجبال، هذا لا يدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق، ولكن العقل قد يقف عنده، ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته، فإنه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه - وتلفظ في هذا لغلط من يقدم العقل على السمع في أمثال هذه القضايا، وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من ذلك».

ويقول الفيلسوف ابن سينا معترفاً بعجز العقل الإنساني عن إدراك بعض الحقائق: «أما المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن إدراكه بالبرهان؛ لأنه ليس على نسبة واحدة» وقد بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فلينظر فيها ولنرجع في أحواله إليها^(١).

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: «فلا غنى بالعقل عن السماع ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية

(١) نقلاً عن ابن خلدون ص: ٤٥٧ .



جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور، فإياك أن تكون من الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين».

فإن العلوم العقلية كالأغذية والعلوم الشرعية كالأدوية، والشخص المريض يستضر بالغذاء متى فاته الدواء، فكذلك أمراض القلوب لا يمكن علاجها إلا بالأدوية المستفادة من الشريعة، وهي وظائف العبادات والأعمال التي ركبها الأنبياء صلوات الله عليهم لإصلاح القلوب، فمن لا يداوي قلبه المريض بمعالجات العبادة الشرعية واكتفي بالعلوم العقلية استضر بها؛ كما يستضر المريض بالغذاء وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن ظن صادر عن عمى في عين البصيرة نعوذ بالله منه^(١).

كما يقول الشيخ الإمام أحمد السرهندي رحمه الله في رسائله: «إن العقل لا تزال علاقته بالجسم العنصري، ولا يجد إلى التجرد الكامل أو التحرر المطلق سبيلاً، فإن القوة الوهمية تمسك بزمامه، والقوة المتخيلة تأخذ بلجامه، وقوة الغضب والشهوة كالظل المرافق له، وخصال الحرص والطمع الذميمة لصيقة به، وإن السهو والنسيان من لوازم الإنسان، والخطأ والغلط من خصائص البشر، ولا يزولان عن العقل، فليس العقل إذاً جديراً بالثقة والاعتماد، وليس أحكامه ونتائجه متحررة من قيود الوهم، والتصرف والخيال، وليست مصنونة من اختلاط السهو والنسيان... لذا تبقى العلوم المحصلة من تصرفات العقل وحده موضع شك فلا يمكن الثقة بها والركون إليها»^(٢).

(١) العقل والنقل ١١٢.

(٢) الرسالة رقم ٢٦٦.



يولد الإنسان فارغ الذهن صافي القلب من غير أن يحمل معه شيئاً من العلم: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨).

فهو يخرج من بطن أمه ومعه أدوات التلقي ونوافذ استقبال المعلومات: السمع والبصر والفؤاد؛ إضافة إلى حواس الشم، والذوق، واللمس. أما العقل فهو جهاز لاقط ومتصرف فيما يتلقاه من معلومات، فبعد ما يكتمل نمو العقل يقوم بترتيب أمور معلومة توصل إلى أمور مجهولة.

وإن دماغ الإنسان مزود بأجهزة الحفظ والتخزين للمعلومات، كما أن له الأعوان من قوة الوهم والتخيل، وليس العقل مترفعاً نزيهاً في التفكير، بل كما سبق يخضع للعواطف وما يحمل الإنسان من مطامع وإهداء.

ثم إن العقل مثل طاقات السمع والبصر إدراكه محدود، فليس بإمكانه أن يعي ويخوض في الأمور الغيبية ويحيطها علماً من أجل ذلك يحتاج الإنسان إلى موجه خارجي غير خاضع للأهواء والأطماع.

فالوحي الإلهي صمام الأمان بالنسبة للإنسان لوضع الحد على الشخصية والمطامع الذاتية.

فإن العقل الإنساني إذا لم يكن خاضعاً لوحي سماوي ويكون تابعاً للهوى؛ فيورد الإنسان في المهالك يبرر له كل تصرف سيء ويزين له كل الجرائم والمعاصي.

فلا يشك أحد يحمل قلباً راشداً وعقلاً واعياً في أن حادث إلقاء القنبلة الذرية على المدنيين اليابانيين يشكل جريمة حصدت أرواح مئات الألوف من



الرجال والنساء والأطفال الأبرياء، وقد استنكر الجميع هذا الواقع؛ لكن محرر دائرة المعارف البريطانية يبرر هذه العملية ويقول: إن هذا الحادث أنقذ حياة أكثر من عشرة ملايين من الناس الذين كانوا سوف يقتلون في حالة استمرار الحرب الدائرة بين الفرقاء.

هكذا العقل يبدع في تحويل الجرائم إلى البطولات، والمنكرات إلى المسلّمات، فقبل مئات السنين دعا أحد زعماء القرامطة المدعو/ عبيد الله بن حسن القيرواني أتباعه إلى الزواج مع البنات والأخوات؛ معللاً أنه من غير المعقول أن يقدم الإنسان اختاً جميلة إلى رجل أجنبي ويأتي في بيته بامرأة أجنبية أقلّ جمالاً منها، فإذا كانت الأخت بإمكانها أن تسعد أخاها في تقديم الطعام والشراب، فلم لا تصلح أن تكون زوجاً له؟!

فعلى جميع الأتباع أن يتزوجوا أخواتهم ، ولا يأتوا في بيوتهم بنساء أجنبيات من غير العائلة، فقد حث الناس على الزواج مع المحرمات الأبدية ، وقدم لها تبريراً عقلياً مع أن الأمر مستكره طبعاً يرفضه الإنسان فطرة.

ومن المعلوم للجميع أن البرلمان البريطاني أقر القانون الخاص بالشذوذ الجنسي وبزواج الرجل بالرجل مع التصفيق من الوزراء والنواب، كما يوجد في الغرب نوادي ومنظمات تدافع عن الشذوذ الجنسي.

وكثير من الوزراء والنواب، يتفخخرون بارتكابهم هذه الرذيلة مع أن جميعهم يحملون العقول، وبعض منهم مبدعون في مجال اختصاصاتهم العلمية والفنية.

إذا لابد من قانون سماوي يرشد العقول ويهدي ويهذب النفوس ويفك



عقول الناس من أسر المطامع والشهوات.

أما «الفلسفات الوضعية» أو الديانات غير السماوية، فهي مليئة بالأوهام مزوجة بالأساطير، فيها ما يتنافى مع الشرع الإلهي ويناقض العقل والنقل والفطرة جميعاً؛ ومع ذلك هناك ملايين من البشر يدينون بها ويتبعونها، وتحدث لهم مشاكل مع أهل الديانات السماوية؛ فالحاجة قائمة بل ماسة للحوار معهم وحثهم على احترام النفس الإنسانية وعدم الحيلولة دون وصول الإنسان إلى الحق والصدق.

ليس المراد «بالفلسفات الوضعية» هنا المذاهب الفكرية والفلسفية الحديثة مثل الوجودية والعلمانية والفوضوية والإنسانية وما شابه ذلك كما يتبادر إليه الذهن، بل المقصود منها تلك الديانات غير السماوية التي اخترعها الإنسان والتزم بها كالتزام أهل الديانات السماوية، وهي في الواقع مجموعة أفكار فلسفية وأساطير خرافية وطقوس وممارسات دينية.

هذه «الفلسفات الوضعية» هي مثل الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية والشتوية والطاوية وغيرها.

ويبلغ عدد البوذيين والهندوس معاً ما يقارب مليارين من الناس في كل من الصين والهند، واليابان والكوريتين بالإضافة إلى سري لنكا والدول الأخرى الصغيرة المجاورة لها.

وإن أي برنامج للحوار الدولي بين الأمم والشعوب لا يمكن إنجاحه بصرف النظر عن هذا العدد الهائل من البشر، فمن الطبيعي أن تدرس هذه الفلسفات الوضعية أو الديانات غير السماوية، وتبحث نقاط الإيجاب



والسلب في تعاليمها وفي المعتقدات التي يؤمن بها أتباع هذه الفلسفات والديانات؛ خاصة أن هناك احتكاكاً مباشراً للأقليات المسلمة التي تعيش في ظل هيمنة الهندوسية أو البوذية.

كما أن تقارب المسافات بين البلاد والأمصار وظهور الأدوات الحديثة للاتصالات والمعلومات قربت كل الشعوب بعضها ببعض، وأوجدت مصالح مشتركة بين الدول الإسلامية والبلاد التي يدين معظم أفراد سكانها بتلك الديانات والفلسفات.

إن الحوار مع أهل الديانات السماوية وكذلك مع أتباع الفلسفات الوضعية مطلب شرعي؛ سواء أكان بهدف إيصال الخير والصدق إلى الناس، أم من أجل إيصال الناس إلى الحق والصدق؛ خاصة في وقت أصبح العالم فيه على صفيح ساخن يهدد العالم بنشوب حرب تأتي على الأخضر واليابس، فتكون كارثة مدمرة للإنسانية جمعاء.

والمسلمون هم أولى الناس بالمبادرة إلى حوار شامل لإنقاذ الإنسانية مما تعاني منه، وإظهار ما لديهم من مبادئ ومثل وعقائد وآداب لأن الناس في أمس الحاجة إليها.

إن شعار عقد الحوار مع كافة الأمم والشعوب الذي طرحه خادم الحرمين الشريفين خطوة جريئة ومبادرة عظيمة تعود بالنفع على الأمة ثم على الإنسانية جمعاء، وذلك لما في الحوار المتبادل من تأثير في نزع فتيل الصراعات والاشتباكات بين الأفراد والجماعات.

إن حب الخالق فطرة جُبل عليها الإنسان، وإن نزعة التدين وظاهرة



الالتزام قديمة قدم الإنسان نفسه، ففي فترات التاريخ التي طال فيها الأمد ولم يبق فيها التزام بالهدى والكتاب المنير؛ مال الإنسان إلى اختراع الديانات والمعتقدات بنفسه واجتالت الشياطين البشر فصنع بعضهم آلهة لسد الفراغ الروحي، واخترعوا فلسفات ومعتقدات أضحت ديانات وتفرعت عنها فرق وطوائف، ودونت لها الصحائف والكتب، وأصبغت عليها القدسية وخضعت لها النفوس، وصنعت لها الهياكل والتماثيل، وبنت لها الصوامع والمعابد.

وهناك فرق واضح ودقيق بين الأديان التي لها مرجعية دينية سماوية مثل الإسلام والمسيحية واليهودية... وبين المعتقدات أو الفلسفات التي اخترعها الإنسان من أجل سد الفراغ الروحي في حالة غياب الأديان الصحيحة أو عدم الثقة في السائد منها؛ لأسباب دينية وبيئية حيناً؛ ونفسية وعنصرية حيناً آخر.

فالديانات السماوية مصدرها الوحي والنبوة، أما المعتقدات أو الفلسفات الوضعية فمصدرها اجتهادات بشرية عقلية، وما تراكم عبر القرون الغابرة من عادات شعبية وتقاليد وقصص وأساطير سيطرت على أذهان الناس. ومن هذه المعتقدات أو الفلسفات الوضعية: الهندوسية والبوذية والجينية والطاوية، وغيرها المنتشرة في ربوع الهند والصين واليابان وما جاورها من بلاد.

فالبوذية والهندوسية هما الأساس، ولهما الغلبة، فأعداد اتباعهما تفوق أعداد المتبعين إلى الديانات السماوية، أما الفلسفات والمعتقدات الأخرى السائدة في الشرقين الأدنى والأقصى فتتفرع عنهما أو ترجع إليها، وقد انقرض بعض منها، وما زال كثير منها منتشراً بين الشعوب.

هذه الفلسفات هي الهندوسية والبوذية والسيخية والكنفوشيوسية (في



الصين تحديداً) والشتو (في اليابان تحديداً) والجينية (في الهند تحديداً) والطاوية (في الصين أيضاً) من المعتقدات أو الفلسفات الوضعية التي نحتاج إلى التحوار مع أتباعها وإيصال الخير إليها والبحث عن أسس التعايش معها من غير الإقرار أو التأييد للمبادئ التي تتكون منها والمعتقدات التي تؤمن بها. وكانت الهند منذ أقدم العصور مسرحاً للغزوات ونزوح أعداد كبيرة من الطورانيين والآريين إليها والاستقرار فيها، يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: إن سكان الهند أخذوا عن الطورانيين نسب أجسامهم وأشكال وجودهم، وعن الآريين أخذوا اللغة والدين والقوانين والسجايا والطبائع^(١).

وقد فقد سكان الهند الأصليون المعروفون بالدرأورد هويتهم الدينية والعقدية وشخصيتهم الاجتماعية والفكرية أمام الزحف المتتالي للآريين والطورانيين وغيرهم.

وإن التمازج بين الطورانيين والآريين هو الذي ولّد نظام الطبقات بين سكان الهند الأصليين المغلوبين وبين الوافدين المهيمنين من الآريين والطورانيين، فتشكل من الآريين طبقة رجال الدين البراهمة (Brahman) وطبقة المحاربين (Kastria) ومن الطورانيين تكونت طبقة التجار والصناع (Vasya) أما السكان الأصليون فقد تحولوا إلى الخدم والعبيد أو طبقة الشودر (Sudra) والمنبوذين.

تكونت الفلسفة الهندوسية من عبادة القوى والمظاهر الطبيعية، فاختار الأوائل آلهة منها ومن الحيوانات والعناصر الطبيعية مثل النار والهواء العواصف والشمس وغيرها.

(١) الحضارة الهندية: ١٠٤ .



فمنذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإلى القرن الثامن قبل الميلاد كان قد انتشر بين الهندوس فكرة الإله «فارونا» (Varama) الذي ينظم تنظيم القوى الطبيعية، والإله «ياما» (Yama) إله الموت، والإله «اندر» (Indar) المتخصص في الحروب والعواصف. فالفيدا الكتاب الهندوسي المقدس تتضمن الأناشيد والترانيم التي تقدر الشمس والنار والعواصف كما يوجد فيه ذكر الأفاعي والأبقار والقروود وغيرها ضمن الآلهة.

ثم جمع بعض الكهنة آلهتهم في «براهما» كموجد والخالق للعالم و«فيشنو» كالمدير والمنظم للأمور الكونية، و«شيفا» كالذي يملك قوة الإهلاك والتدمير.

ويتضمن الأوبنيشاد (Upanshad) التراث الفلسفي الهندوسي حول «الإله» و«الروح» و«براهما» وكان «شنكر» هو الذي قدم تصور الروح المطلق «أو الواحد الأوحد» وأطلق مثل هذه الأوصاف عمل «براهما» بأنه فوق جميع الآلهة.

إن مجموعة «الفيدا والأبنشد والبورانا» هي الكتب المقدسة في الفلسفة الهندوسية تعتمد عليها أساساً الديانة الهندوسية المنتشرة على رقعة كبيرة من العالم، ويمكن أن تضاف إليها مجموعة «برهمان جرانث»، وهي في الواقع شرح وتفسير «للفيدا».

ويعتبر «رجفيدا» و«يجرفيدا» و«سام فيدا» من أقدم الكتب ألقت في أدوار ثلاثة يصعب تحديدها، ويوجد اختلاف كبير بين تقدير العلماء الهندوس والمستشرقين الغربيين عن زمن تأليف هذه الكتب، وحدد البعض نحو أربعة آلاف سنة.

كما يوجد اختلاف كبير في تحديد أماكن بعثة «الرشى» أو «النبى» الذي أوحى إليه تلك الكتب.



وتعتبر مجموعة «الفيدا» أكثر الكتب استناداً وأصالة، وهي القاعدة الأساسية للديانة الهندوسية أو الفلسفة الوضعية التي يتبعها الهندوس يتلوها في المكانة «الأبنيشد» وبعض المحققين الهندوس يرجحونه على «الفيدا» أيضاً.

كما أن «البورانا» يعتبر أكثر الكتب تداولاً وقبولاً بين الناس، وهو سهل الأسلوب واضح المنهج؛ على عكس «الفيدا» فإن فيها صعوبة وتعقيداً. يتضمن «البورانا» تاريخ خلق الكون والقبائل الآرية كما يتضمن أيضاً حياة وتراجم العلماء الربانيين فيها وقد قسم «فياس» هذه الكتب في ١٨ جزءاً.

ومعنى كلمة «الفيدا»: «المعرفة» أو «الحكمة»، تشمل «رجفيدا» على ١٠٢٨ بيت شعر، و«سام فيدا» على ٥٨٥ شعراً.

وفي «يجرفيدا» ترانيم خاصة تتلى وقت تقديم «القرايين إلى الآلهة». وفي «اتهرفيدا» أدعية وابتهالات وعلاج السحر وبيان تأثير القوى الشريرة.

ومما يبعث على العجب أن بعض الدارسين قد جمعوا مجموعة كبيرة من النبوات عن بعثة محمد ﷺ وأوصافه وشمائله من «اتهرفيدا» ومن «البورانا» وغيرهما من الكتب المقدسة لدى الهندوس^(١).

(١) انظر على سبيل المثال «النبي العربي في كتب الهنادك المقدسة» لعبد الرحمن الجيري وكتب ورسائل لشمس نويد عثمانى وإمام الدين رام نكري وآخرين.



وإن دل هذا على شيء فإنما يدل أن الأديان ترجع إلى أصل واحد ومهما حصل التغير في الكتب المقدسة القديمة فما زالت آثار الصدق باقية في بعض آياتها وتشريعاتها.

فإن صح ذلك فهو برهان جديد على صدق محمد ﷺ وعلى كونه خاتم النبيين ورسول رب العالمين. وهذا الأمر يثير تساؤلات من جديد حول ما يسمى «بالفلسفة الهندوسية» هل كانت في الأصل هي ديانة سماوية دخلها التغير والتبديل على مرور الزمان؟ وهل ظاهرة عبادة الأصنام دخيلة أوجدها المحرفون كما فعل عمرو بن لحي في البلاد العربية بتغيير ملة إبراهيم عليه السلام وإدخال الوثنية في التعاليم الهندوسية؟

يقول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وجرت سنة لله سبحانه أن لا يعذب أمة حتى يبعث فيهم رسولا، فهل من المعقول أن هذا العدد الهائل من البشر المنتشر من الهند إلى الصين وما جاورها من البلاد لم يبعث فيهم رسول ولم يأت إليهم نبي؟!

وقد يكون من الطرائف أن نذكر أن أحد علماء الهند المعروفين بالعلم والذكاء وهو العلامة الكبير الشيخ مناظر أحسن الكيلاني رحمه الله كان يرى أن «ذا الكفل» المذكور في القرآن الكريم قد يكون هو «بوذا» الذي ولد في «كبل وستو» وأنه ربما كان نبيا، ثم حُرّف أتباعه تعاليمه بعد مرور الزمن، علماً أن المفسرين اختلفوا في تحديد المقصود من «ذي الكفل» ولم يقدموا مستنداً قوياً على ما ذهبوا إليه بأن المراد من ذي الكفل هو إلياس عليه السلام لاحتمال أن يكون غيره.



الفلسفات والمعتقدات الوضعية

يوجد في شرق آسيا عدد هائل من البشر، فالصين هي الأولى من ناحية عدد السكان، تأتي بعدها الهند، فهذان البلدان يتجاوز عدد سكانهما معا مليارين نسمة.

ورغم وجود الإسلام والمسيحية وغيرهما من الديانات في تلك المنطقة فما زالت الكثرة الكاثرة من سكان الصين والهند والبلاد المجاورة لها مثل كوريا واليابان وغيرهما تعتنق الديانة البوذية والهندوسية بالإضافة إلى الشنتوية، والطاوية والكونفوشيسية إلى جانب السيخية والمهاريشية، وهذه فلسفات أساساً قبل أن تكون ديانات.

وإن القدر المشترك في تلك الديانات أو الفلسفات الوضعية ممارسات وطقوس تراكمت منذ مئات القرون، فهي على اختلاف طرقها وأساليبها تقديس المظاهر الطبيعية.

وها هي بعض تلك الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تسود شرق آسيا وجنوبها. ونظراً إلى تشابه الطقوس والممارسات بينها لا يمكن التمايز الحقيقي بينها:

البوذية:

وهي المنتشرة في اليابان والصين والهند وكوريا وكمبوديا وسيلان وغيرها من البلاد.



تقاليد البوذيين وطقوسهم شبيهة بتقاليد الهندوس، كما أن عبادة الأصنام وعقيدة تناسخ الأرواح مشتركة بين الديانتين؛ مع فارق ضئيل، وهو أن البوذيين لا يضعون في معابدهم غير تمثال بوذا، أما الهندوس فهم يعبدون كل صنم، وتكثر التماثيل في معابدهم، ويأتي ذكر بعض خصائص البوذيين ضمن الحديث عن الهندوسية.

الهندوسية:

قام المستشرق الفرنسي الشهير «غوستاف لوبون» بدراسة أديان الهند، وألف كتابه المعروف عن «حضارة الهند» يلخص فيه معتقدات الهندوس في النقاط التالية:

(١) عبادة القوى الطبيعية (٢) تشخيص هذه القوى بأسماء الآلهة (٣) اعتقاد خلود الروح (٤) عبادة الأجداد (٥) تقديم القرابين إلى الآلهة وتخصيص بعض منها للمطر، وآخر للصحة، وإله آخر للمال، كما أن الاعتقاد بتناسخ الأرواح من عقائد الهندوس عموماً.

تبنى الفلسفة الهندوسية على النظام الطبقي والتفرقة العنصرية بين أجناس البشر وتوجد الإشارة إلى هذه الحقيقة في «فيدا» الكتاب المقدس لدى الهندوس.

كما أن «شرائع منو» المعروف «بمنو شاستر» تقرر ذلك وتحدد الطبقات في النظام الاجتماعي الهندوسي.

وهذه الطبقات البشرية في الفلسفة الهندوسية الوضعية كالتالي:



- (١) البراهمة: (وهم طبقة الكهان ورجال الدين وهي أعلى الطبقات).
 - (٢) الأكشيرية: (طبقة المحاربين وعليهم الدفاع عن البراهمة وتوفير الأمن في المجتمع).
 - (٣) الفيشية: (وهم طبقة الزراع والتجار، عليهم توفير وسائل العيش للبراهمة والمحاربين).
 - (٤) الشودرا: (وهم أسفل الطبقات، ويسمون بالمنبوذين أيضاً ليس لهم أي حق ويجب عليهم أن يخدموا الطبقات العليا، وهم أنجاس مناكيد في الفكر الهندوسي ليس لهم أن يقرأوا الكتب الدينية أو يشربوا من نفس الكوب الذي يشرب منه البراهمة.
- و يعلل المشرعون لهذه الفلسفة المبنية على العنصرية والفوارق الطبقية قائلين: إن الرب المولى حينما أراد أن يتكاثر الجنس البشري فخلق من فمه: البراهمة، ومن ذراعه: الأكشيرية، ومن فخذه: الفيشية، ومن رجله: الشودر أو المنبوذين، فالدرجات متفاوتة وفق خلق الرب لتلك المجموعات البشرية. والمسؤوليات أيضاً موزعة، فالرب عندهم هو الذي حدد الأعمال والمسؤوليات، لكل من تلك الطبقات حسب درجات تلك الفئات.
- فعهد إلى البراهمة دراسة الكتب المقدسة والأسفار المعروفة بالفيديا، وتعليمها وتقديم القرابين إلى الإله وقبول العطايا من الفئات الأخرى.
- وفرض على الأكشيرية حماية الشعب والتضحية في الدفاع عن البراهمة وتلاوة الكتب المقدسة وعدم الانهماك في الشهوات.
- وخص الفيشة، بتربية المواشي وأداء الزكاة وتقديم التضحيات في سبيل إسعاد الطبقات العليا إلى جانب ممارسة الأعمال التجارية والأنشطة الاقتصادية.



أما «الشودر» فأوجب عليهم أن يخدموا تلك الطبقات العليا وخاصة البراهمة وأن يعيشوا حياة الذل طوعاً أو كرهاً.

إن الفلسفة الهندوسية قائمة على تقديس المظاهر الطبيعية المختلفة وعبادة كل شيء يضر أو ينفع من الأبقار والنعاج والقرود وغيرها لاعتقاد الهندوس بأنها تمثل قدرات وصفات الآلهة المختلفة من أجل ذلك كثرت لدى الهندوس الأصنام والتمائيل، فالمعابد الهندوسية تغص بملايين الأشكال من التماثيل والأصنام والأشكال الغريبة والموحشة.

يقول الدكتور رادها كرشن رئيس الجمهورية الهندية الأسبق وأحد فلاسفة الديانة الهندوسية الأبرز مفتخراً على انتمائه الديني: «إن من سعة وسماحة الديانة الهندوسية أن من يعبد ألف إله من شجر وحجر هو هندوسي، ومن لا يعبد شيئاً يبقى أيضاً هندوسياً، ولا يخرج من دائرة الهندوسية الواسعة والفضفاضة بسبب ترك بعض العقائد أو التقصير في العبادة والعمل».

وقد مال بعض المنظرين الهندوس إلى اختصار الطريق وتقليل عدد الآلهة، وذلك بتحديد الآلهة الأساسيين وهم ثلاثة:

(١) الإله شيفا (Shiva)

(٢) الإله الفيشنو (Vishnu)

(٣) الإله براهما.

فالأول هو إله الحياة والتغير في الكون أما الثاني فهو الحافظ لنظام الكون أما الخالق البارئ فهو «براهما» وهو فوق الآلهة جميعاً.



علماً أن عامة الناس لا يفرقون بين إله وإله ويشركون بها جميعاً وينسبون إلى كل منها أنواعاً معينة من الكمالات وإن كان بعض المثقفة من الهندوس يصرحون أحياناً بأن الله هو واحد وهو الذي حل في باقي الآلهة وهو برهما أو رب الأرباب.

الجينية:

ومن الفلسفات الوضعية ذات الصبغة الدينية أيضاً ما يسمى "بالجينية" وهي في الواقع حركة عقلية حاولت التحرر من سلطان الديانة الهندوسية وهي تعتمد في نظامها التطبيقي على الرياضات الشاقة والمراقبات المتعبة وطريقها الرهبانية لكن غير رهبانية البراهمة.

فالجينيون يرون أنه لا يوجد روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون وأن أرواح الإنسان والحيوانات كلها خالدة وتجري عليها التناسخ.

وهو دين مسالم أو فلسفة تبالغ في البعد عن العنف وتكره حتى قتل الهوام والحشرات الصغيرة.

رفض الجينيون آلهة الهندوس (برهما، فيشنو، وشيفا) ولكن جعلوا القديسين أو الجيناوات الأربع والعشرين أنفسهم آلهة تعبد.

فلا صلاة عند الجينيين ولا قرابين للآلهة، ولا يقرون بالطبقات بين أجناس البشر وقد قسم «بارسواناث» أحد أبرز الكهنة الجينيين إلى الخاصة وهم الرهبان، والعامة وهم الذين يؤيدون النظام.

يؤمن الجينيون بالتناسخ، كما يؤمنون بالحسنة والسيئة، والنجاة في



الفلسفة الجينية هي في التخلص من قيود الحياة، وإن السبيل إلى النجاة شاق وعسير ولا بد للنجاة من قهر جميع المشاعر والعواطف، ومن غرائب الأمور أن الجينيين لا يرون بأساً العري أمام الناس كما يؤيدون الانتحار أيضاً للتخلص من مشاكل الحياة.

وقيل في خلاصة الفلسفة الجينية اليواقيت الثلاثة:

الياقوتة الأولى: الاعتقاد الصحيح.

الياقوتة الثانية: العلم الصحيح.

الياقوتة الثالثة: الخلق الصحيح.

ولا شك أن هذه حكم مفيدة وآداب لطيفة إذا تم تطبيقها في الواقع العملي، ويصف الجينيون رائدهم الديني «مهاوير» المولود في ٥٩٩ ق م بأوصاف الكمال فيقولون:

إنه كان حراً كالطير، جسوراً كالفيل، قويا كالثور، مهيباً كالأسد، ثابتاً كالجبل، عميقاً كالبحر، وديعاً كالقمر بهياً كالشمس طاهراً كالإبريز وذلك لأنه كان قد مارس الرياضة الروحية والجسدية الشاقة طوال ١٢ عاماً.

يغلب على التفكير الهندوسي الميل إلى تعدد الآلهة، بل قد بلغ التعدد عند الهندوس إلى درجة أنهم يعبدون الماء والنار والأنهار والجبال وكل شجر وحجر أو جماد وبقر وإن كان تاريخ الفلسفة الهندوسية لا يخلو من فكرة التوحيد فيطلقون على الخالق الحقيقي رب الأرباب وإله الآلهة لكنهم لا يترددون في عبادة الأصنام وتقديم القرابين للآلهة.



أما الجينيون فإن كانوا قد رفضوا في بداية الأمر تصور الإله أو وجود روح أكبر أو خالق أعظم لهذا الكون وذلك بسبب سوء تصرف الكهنة الهندوس والذي ألجأهم إلى إيجاد فلسفة جديدة لكنهم في نهاية الأمر جعلوا «مهاوير» إلهاً بل بدؤوا يعبدون الكهنة الأربعة والعشرين المعروفين بالجيناوات.

أما الأدب المأثور عن بوذا فيكاد يخلو من ذكر الإله إثباتاً أو نفياً بل كان يمنع أصحابه من الخوض في اللاهوت أو البحث عما وراء الطبيعة مع ذلك أصبح بوذا هو الإله لدى أتباعه فيعبدون تمثاله ويسجدون أمامه. ومن الكتب المقدسة لدى الهندوس إلى جانب «فيدا»:

١ - مها بهارتا (Maha Bharta)

٢ - كيتا (Gita)

٣ - يوجا واسستها (Yoga vesisthe)

٤ - رامائنا (Ramayana)

تتكون الفلسفة الوضعية الهندوسية بمزيج من العادات والتقاليد والمعتقدات التي كانت سائدة في سكان الهند الأصليين وما جلبه إليها التورانيون والغزاة الآريون وما تراكمت خلال القرون الطويلة من الأساطير. ومن معتقدات الهندوس الإيمان بوحدة الوجود وتناسخ الأرواح وإقرار بنظام الطبقات وتقديم القرابين إلى الأصنام.

ويعتبر خروج «بوذا» و«مهاوير» من الديانة الهندوسية وإعداد فلسفة جديدة ونشر معتقدات مختلفة عن الهندوسية يعتبر ضربة قاضية على الهندوسية إلا أنها بسبب كثرة عدد أتباعها وانطواء أهل الهند على أنفسهم



وابتعادهم حضارياً عن العالم الخارجي خفف آثار الانشقاق وساعد في استمرارها كمذهب غالبية عدد السكان.

الكنفوشية:

منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة تخضع الصين لثلاث ديانات أو فلسفات أساسية هي:

١- الكنفوشية.

٢- الطاوية

٣- البوذية

دخلت البوذية عن طريق تركستان إلى الصين وانتشرت في الجماهير بينما ظلت الطبقة الاستقرائية من رجال الحكم وغيرهم ملتزمة بالكنفوشية فكان تقام الطقوس والمراسيم وطريقة تقديم القرابين إلى الآلهة وفق فلسفة الكنفوشوس. (Kong-Foutsu) أو الكنفوشوس ولد في ٥٥١ قبل الميلاد ومات في ٤٧٩ قبل الميلاد وظل الصينيون يتناقلون تعليماته الأصلية جيلاً بعد جيل إلى أن قرر حاكم مملكة «هان» أن يتولى الكنفوشوسيون مقاليد الحكم فأصبحت الفلسفة الكنفوشية دين الدولة.

وهناك نحو تسعة كتب تعتبر من المقدسات في الفلسفة الكنفوشية منها:

١- لي ، جي

٢- التعليقات على كتاب «الإلاجي» أو «التغيرات» وفيها أبحاث عن ما وراء الطبيعات.

٣- كتاب «الشتي - جج» وهي عبارة عن بيان حقيقة الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة.



- ٤- «التشوجج» أو كتاب التاريخ فيه حكايات عن طبائع الملوك.
- ٥- «التشوسيتو» أو حوليات الربيع والخريف.
- تضاف إليها الكتب الأربعة الأخرى وهي:
- ١- «لون - يو» الأحاديث والأحداث
- ٢- «الدشوة» التعليم الأكبر وهو كتاب طريف يقال ألفه حفيد الكنفوشيوس.
- ٣- «جونج يونج» أو عقيدة الوسط
- ٤- «مفنيس» وفيه خروج عن المعهود في آراء الكنفوشيوس من تقديس الآراء القدماء.

الطاوية:

كلمة طاو (Tao) قبل كنفوشيوس كانت تستخدم بمعنى الطريق أو أسلوب العمل واستخدمها الكنفوشيوس بمعنى الطريق الصحيح للعمل أخلاقياً واجتماعياً وسياسياً، ولم يعط لهذا اللفظ أي بعد ميتافيزيقي، ومؤسس الفلسفة الطاوية هو «لاوتسي» أي العلم القديم.

وقد التقى كنفوشيوس «لاوتسي» في نزعه الأخير وقال لتلاميذه بعد عودته: إنني أعرف كيف يطير الطير، ويسبح السمك، ويجري الحيوان، لكن الذي يجري على الأرض يمكن اقتناصه، والذي يسبح في الماء يمكن صيده، والذي يطير في الجو يمكن إصابته بالسهم.

غير أن هناك تيناً مهولاً ولست أستطيع أن أجده مثيلاً غير التين^(١).

(١) قصة الحضارة ٤ / ٣٠.



ومن كتب الطاوية: «طاوتي كنج» أي كتاب الطريقة والفضيلة، وهو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الطاوية.

وكتاب من جزأين في الطاو، والطاوية يشتمل على خمسة آلاف كلمة، ولما أتمه اختفى ولا أحد يدري أين مات.

والكتاب الثالث المقدس هو «جوانج تسو».

ومع التناقضات والاختلافات الكثيرة في الكتب المقدسة أو مراجع الفلسفات البوذية والهندوسية والطاوية والجينة والسيخية وغيرها توجد هناك نصوص وبنود يمكن أن تكون نواة لإيجاد ميثاق التعاون بين الشعوب أو محاور للحوار الموسع مع كافة الشعوب وإيجاد أرضية مشتركة للتعايش بسلام مع الاختلاف في المعتقدات والفلسفات.

فالكنفوشيوس الفيلسوف الصيني الكبير يقدم فكرة «الإنسان النبيل» أو الإنسان الكامل، وإن الأخلاق الفاضلة التي يدعو إليها هدفها إحلال السلام وتأمين السعادة لأكبر عدد من الناس فإنه كان دائماً يربط بين الأخلاق والسياسة لما بينهما من علاقة جوهرية وقد ركز الكنفوشيوس في تعاليمه على إصلاح الحكومة، يقول رداً على سؤال أحد الأشخاص:

«توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً، والوزير وزيراً، والأب أباً، والابن ابناً» كذلك تلاميذه مثل منشيوس «وهسون تسو» وغيرهما ركز على الإصلاح الاجتماعي والسياسي والابتعاد عن مسائل المنطق وفلسفة المعرفة والميتافيزيقيا^(١).

(١) انظر: قصة الحضارة لويل دورانت، الأديان الحية لأديب صعب، المعتقدات الشعوب.



يعتبر الكنفوشيوس لدى الصينيين مثل سقراط لدى اليونانيين.
ومنشويوس بمنزلة أفلاطون ويشبهون «هسون تسو» بأرسطو.
وكان اهتمام الثلاثة بإصلاح الحكم، والإصلاح الاجتماعي والزراعي والاقتصادي.

والفلسفة الطاوية أيضاً تدعو إلى نبذ الحرب والسلاح ليعيش الإنسان حياة مثالية^(١).

ويرى مؤسس الطاوية أن أية حياة يحيها المرء بصورة تلقائية فهي حياة سعيدة لا تنغصها المنازعات والحروب لأنه لا وجود للرغبة في الخصام والقتال وعندما لا توجد هذه الرغبة فإن أحداً لن يفكر بالقتال والحرب ويعم السكون والسلام.

ومن أقوال «لاوتسي» (المعلم القديم):

إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك وألين الأشياء في العالم هو الماء لا شيء ألين وأضعف من الماء ولكن لا شيء أقوى من الماء في مغالبة الأشياء الصلبة القوية^(٢).

وتؤكد الفلسفة البوذية أيضاً: أن الشر هو القتل، والسرقعة، والفجور، والكذب والاعتياب، والثروة، والحسد، والحقد، والإيمان بعقائد باطلة وأما جذور هذه الشرور هي الشهوة والبغض والوهم.

(١) الأديان الحية/ ٧٧ .

(٢) قصة الديانات/ ٢١٧ .



ويدعو بوذاً إلى عدم القيام بأعمال شريرة وعدم ارتكاب خطايا ومن خطايا الجسد عنده: القتل والسرقة والزنى.

وقد جاء في الوصايا العشرة المعروفة بوصايا السنغاها: لا تقتل، لا تسرق، لا تزني، لا تكذب الخ.

وفي القرن الحادي عشر ظهر كتاب باسم أساس الدين^(١) لراهب بوذي يطرح السؤال التالي:

لماذا التصادم بين «بوذا» و«لاوتسي» و«كنفوشيوس» وثلاثتهم بشروا بالعقيدة نفسها يجب إذاً احترامهم^(٢).

وهناك ظاهرة ملفته للنظر في المعابد والهيكل البوذية في الصين إذ يرى دائماً تمثال بوذاً يحيط به من اليمين تمثال كنفوشيوس، ومن اليسار تمثال «لاوتسي» مؤسس الطاوية. وهذا دليل تقدير الجميع أتباعهم مع اختلاف فلسفة كل واحد منهم.

ومن الفلسفات الوضعية أو المعتقدات التي تنتشر في اليابان «الشتو» ومن الكتب المقدسة لدى أتباعها: «كوجيكي ونيهونجي وانجيشكي».

وأهم معابد الشنتوية معبد «ايزي» (Ise) يقع على بعد ٣٠٠ كيلو من طوكيو تؤدي فيه طقوس العبادة لإله الشمس.

(١) إنجيل بوذا/ ١١٠ .

(٢) البوذية هذه ارفون/ ١٠٠ .



فلسفة الشنتو تدعو إلى التفاؤل والعيش ببساطة والكشف عن العيوب الشخصية قبل عيوب الآخرين وترغب في الهدوء والسلام. وهناك ديانة «زن» (Zin) وهي في الواقع امتداد للبوذية ولها طقوس خاصة.

السيخية:

مؤسس الديانة السيخية أو فلسفة السيخ هو غرو نانك (Gourou Nanak) ولد في بيئة هندوسية وبيت وثني وعاش في مناخ إسلامي وتأثر ببعض أهل التصوف من المسلمين واختار نهجاً جديداً للحياة الدينية وفلسفة جديدة لتزكية الروح.

فكان يؤمن بإله واحد ليس له مثيل ولا شبيه وعلمه محيط لكل شيء.

ولد غرونك (Gourou Nanak) في عام ١٤٦٩ ومات في ١٥٣٩ رافق أثناء حياته الوظيفية بعض المنشدين المسلمين واختفى عن الأنظار فترة ثم ظهر ينادي بأنه صاحب رسالة ومبعوث إلى المسلمين والهندوس جميعاً وتتلخص دعوته في ثلاث قواعد هي:

١- الكد والعناء.

٢- الإحسان مع الآخرين.

٣- التأمل والتفكير.

تعاقب على زعامة السيخ تسعة أشخاص بعد وفاته ويلقب كل منهم «بغورو» أو «المعلم» و«السيخ» معناه «المتعلم» أو «المريد».

و في عهد الغورو الخامس أرجن (Arjun) تم بناء المعبد الذهبي في أمرتسر



بولاية بنجاب.

في عصر الغورو العاشر غوبند سينغ تم إنشاء منظمة «الخالصة» ولقب
الشيخ بـ (Singh) (الأسد).

والتزم الاتباع حياة الزهد والتقشف والامتناع عن شرب الخمر والتدخين
وأكل لحم الخنزير.

و«غرنت صاحب» هو كتاب الشيخ المقدس، وتختلف الفلسفة السيخية
عن «الهندوسية» فهي في تصورهما للإله قريبة من مفاهيم الإسلام أكثر ميلاً
إلى التوحيد وتحتوي كتابهم المقدس على خليط من المفاهيم الإسلامية وغير
الإسلامية وهو عبارة عن ٦٠٠٠ ترنيمة الغورو الخمسة الأوائل.

وشعارات الشيخ الخمسة تبدأ بحرف الكاف وبها يتميز الشيخ عن غيرهم
وهي:

١- الكيس (Kesh) الشعر يطيله السيخي المنتمى إلى الخالصة.

٢- المشط (Kangha) يحمله كل سيخي لترتيب شعره.

٣- الكشة (Kaccha) سروال قصير شبه بشورت عسكري.

٤- الكرا (Kara) سوار من الحديد يضعه السيخي في معصم يده.

٥- الكربان (Kirpan) خنجر يحمله السيخي.

ومن لم يلتزم بالكافات الخمسة يعتبر خارجاً عن الملة، مرتداً، ويقتصر
عبادة الشيخ على قراءة الكتاب المقدس والسجود أمامه وتقديم القرابين له.

و يقوم السيخ أيضاً بحرق جثمان الميت وإلقاء الرماد في نهر «كنكا»



المقدس كما هو المعهود لدى الهندوس.

لا توجد في أدبيات الشيخ أو كتابهم المقدس ما يدفع الإنسان إلى العنف وأنشيد الكتاب المقدس تشمل على وصايا أخلاقية، وإن كانت هناك ثارات وذكريات مؤلمة مع المسلمين فقد قام الشيخ بذبح وحرقت مئات الآلاف من المسلمين أثناء رحلة عذاب المسلمين إلى باكستان في عام ١٩٤٧م.

وبعد اقتحام الجيش المعبد الذهبي للشيخ واغتيال رئيسة وزراء الهند الأسبق وما أعقب ذلك من أحداث دامية عادت الأمور إلى طبيعتها وأصبح الشيخ يتعاطفون مع المسلمين. ﷺ



نماذج من بنود إيجابية في الفلسفات الوضعية

في كتاب الهندوس المقدس (Gita) جاء ضمن تعليمات كرشنا: «إن الناسك الحق هو الذي لا يبغض أحداً، ولا يشتهي شيئاً ولا يرى غير الحق، ويجري وراء واجبه دائماً... ويرى جميع الأرواح كروحه ولا يفرق بينها، ولا يقصد بعمله إلا وجه الله وحده».

وفي الأصول السبعة لأتباع الفلسفة الجينية:

١- أخذ العهود والمواثيق مع القادة الرهبان لأن يتمسك المرید بالخلق الحميد ويقلع عن الخلق السيء.

٢- والتقوى هي المحافظة على الورع والاحتياط في الأقوال والأعمال وفي جميع الحركات والسكنات، وتجنب الأذى والضرر لأي كان مهما كان حقيراً.

وفي تعاليم بوذا تصريح:

بأن الاحترام للحياة إنسانية كانت أو حيوانية هي من أهم الأخلاق البوذية فليس لبوذي أن يقتل حيواناً في لهو كالصيد، أو في جد كذبحه للأكل بل عليه أن يرفق بالحيوان، ويعده أخاه في الخلق، ولا يراه خلقاً أدنى منه لأن الهدوء الروحي والحب لكل نسمة هو ما أرشد له بوذا.

والمحبة الشاملة من أهم وأفضل الأعمال الحسنة وإن الحسنات على اختلاف أنواعها لا تبلغ سدس فضل المحبة التي تحرر القلب من شوائب الشر..... ويجب على الإنسان أن يغرس في نفسه الحب العميق الصادق لسائر الخلق.



فإذا كانت هذه هي تعليمات ومبادئ «البوذية» و«الهندوسية» و«الجينية» على حد سواء فمن المستغرب حقاً أن يعتدي بوذي أو هندوسي على إنسان مسلم، وإذا كان قتل الحشرات والهوام جريمة ومعصية في الفلسفة الجينية فحياة الإنسان ولو كان مسلماً - أحق وأحرى أن يحافظ عليها.

تعامل الملوك المسلمين مع غير المسلمين

غالبية سكان الهند هندوس و بوذيون مع أن المسلمين حكموا الهند نحو ثمانية قرون و تركوا في ثقافتها أثراً غائراً و ملأوا ربوعها بمعالم حضارية مثل تاج محل والقلعة الحمراء و مئات من المساجد الملكية الفخمة و مازال المسلمون يعيشون في أقلية بين نحو مليار نسمة من غير المسلمين و هذا أكبر دليل على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف و ان الحكام المسلمين لم يجبروا أحداً على اعتناق الإسلام أو ترك عبادة الأوثان.

يقول غاندي وهو أكبر زعيم هندوسي بلا منازع:

«إن الإسلام هو صوت الحق، ووقتما كان الغرب في ظلمات الجهل طلع على أفق الشرق نور الإسلام كنجم ساطع لقد جاء الإسلام ليوفر السكينة في قلوب الإنسان المضطربة والقلقة في العالم، إن الإسلام ليس ديناً كاذباً، وقد أصبحت لدى قناعة بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف»^(١).

ويقول رئيس وزراء الهند الأسبق جواهر لال نهرو في كتابه «من السجن إلى الرئاسة»: «لقد ترك الإسلام بصمة واضحة في ثقافة الهند، فقد علم

(١) جريدة هندو - لاهور، عدد ٢٢/٥/١٩٣٨.



المسلمون أهل الهند أساليب الأكل واللباس وقضى الإسلام على عديد من التقاليد الوحشية السائدة في الهند مثل «ستي» (إحراق زوجة الميت بعد وفاة زوجها) كما ترك المسلمون معالم حضارية عديدة».

لقد تعامل المسلمون الذين فتحوا بلاد الهندوس والبوذيين بمتهى الرفق وكمال العدل وغاية السماحة والمداواة مع الرعايا البوذيين والهندوس وأتباع كافة الفلسفات الوضعية والمعتقدات الدينية، تشهد الوثائق التاريخية بأن الحكام المسلمين على اختلاف أصولهم العربية والتورانية والمغولية أعطوا رعاياهم من غير المسلمين كامل حقوقهم، وحریتهم الدينية، فلم يهدموا معابدهم، بل خصصوا لها أراضي واقطاعات بمراسيم ملكية.

حتى إن أكثر الملوك التزاماً بتعاليم الدين الحنيف والذي يروج عنه أنه كان شديداً مع غير المسلمين قد أعطى عشرات من المعابد الهندوسية أراضي واقطاعات.

يقول البرفيسور «سري رام شرما» وهو من الهندوس في كتابه المعروف «الإمبراطورية المغولية في الهند»:

«لم أجد أي وثيقة تثبت أن الإمبراطور «بابر» قام بهدم أي معبد هندوسي ولا دليل على أنه آذى أي هندوسي من أجل أنه هندوسي»^(١).

ويقول مؤلف هندوسي آخر وهو «كالكارنجن قانون كو»:

«إن الحاكم المسلم «شير شاه سوري» قد أقام نظاماً عادلاً للحكم ووفر

(١) الإمبراطورية المغولية في الهند ٥٥ .



للهندوس فرصة حقيقية للانتعاش الاقتصادي والسياسي، إنه حاول أن يؤسس وحدة قومية ووطنية بين المسلمين وغيرهم».

وقد نقل مؤلف كتاب دعوة الإسلام «تي، دبليو آرنلد» أن الملك الأورنك زيب عالمكير - الذي يتهمه أعداءه بالعصبية - : «كان قد رفض أن يطرد اثنين من موظفي البلاط لكونهما مجوسيين، يعبدان النار، وقال أن الوظائف تمنح بناء على الكفاءة وليس لاعتبارات أخرى».

ويقول أحد الأساتذة الهندوس وهو السر C.P. رائتي: «إن عصر أورنك زيب تميز بمنح الهندوس مناصب رفيعة واقطاعات وأراضي كثيرة».

لقد عهد أورنك زيب عالمكير إلى الهندوس منصب حاكم الولاية، وقائد الجيش، ونواب الحكومة، حتى ان الشخص الذي أسند إليه منصب نائب السلطنة في ولاية أفغانستان كان أحد الهندوس من سلالة راجبوت».

وفي عام ١٩٣٦ كتب أحد كبار المفكرين الهندوس وهو الباندت سندر لال مقالا تحت عنوان: «حكم الإنجليز في الهند» يقارن فيه بين العصر الإسلامي والعصر الإنكليزي الاستعماري يقول فيه: «إن عصر الأباطرة المغول: أكبر، وشاهجهان، وعالمكير وآخرين كان التعامل فيه بالمساواة والعدل بين الهندوس والمسلمين من غير تمييز أو انحياز إلى فئة دون أخرى».

وهناك شواهد تاريخية ووثائق عديدة أن الملك المسلم أورنك زيب عالمكير كان قد أصدر مراسيم لمنح عديد من كهنة المعابد الهندوسية عطايا كما خصص اقطاعات وأراضي للمعابد نفسها.

وما زالت بعض تلك المراسيم موجودة ومتوارثة فيمكن أن يشاهد



مرسومين من هذا النوع في «معبد سوميشورناث» بمدينة إله آباد لدى كهنة المعبد.

وكان عشرات من الهندوس يحظون بمناصب رفيعة في أجهزة السلطة^(١). بل كانت هذه سياسة مستحكمة لدى الحكام المسلمين عموماً من أجل إدارة أمور بلد الأكثرية فيه لغير المسلمين، وعملاً بمبدأ العدل بين الرعايا في الإسلام. يوصي الامبراطور بابر ابنه همايون: «يا بني إن أرض الهند ذات ديانات وملل كثيرة فاحمد الله على أنه أعطاك الملك وعليك أن تبتعد عن كافة أنواع العصبية، وأن تقيم العدل بين الناس، ويمكن نشر الإسلام بالعدل بين الناس، وليس باستخدام السيف فحاول أن تجمع كافة أهل الديانات كما جمع الله سبحانه العناصر الأربعة في جسد الإنسان ليبقى الحكم مستقراً»^(٢).

كذلك الحال كان مستمراً إلى الأيام الأخيرة من حكم المسلمين في الهند، فالأمير الشجاع الشهم السلطان تيبو الشهيد الذي يتهمه بعض المغرضين بممارسة الظلم ضد بعض الفئات من غير المسلمين وإجبارهم على اعتناق الإسلام، يقول عنه المؤرخ الهندوسي رام سندري رائي: «إنه لم يجبر أحداً بل إن خمسمائة شخص اعتنقوا الإسلام طواعية» وكان يوجد عديد من البراهمة في بلاطه على مناصب رفيعة، وكان يرسل هدايا إلى القائمين بشؤون المعابد الهندوسية، وما زالت بعض الهدايا العينية منها موجودة في معبد «رنكناث» في «سري رنكابتنم».

(١) مآثر الأمراء ٢ / ٣٥ .

(٢) تقسيم الهند ص ٣٩ .



ولم يَقم ببناء المسجد عند القصر حيث كان المعبد الهندوسي موجوداً هناك منذ زمن بعيد إلا بعد الاستشارة مع الكهنة والتنسيق معهم تجنباً من وقوع الفتنة بين المسلمين والهندوس.

بين المناظرة والحوار

كان الاستعمار البريطاني قد بدأ بسط سيطرته تدريجياً على الهند بواسطة شركة الهند الشرقية إلى أن امتلك ناصية أمور الدولة كاملة في عام ١٨٥٧ م وقضى على حكم المسلمين المستمر منذ نحو ثمانية قرون.

و مع بداية الحكم الإنكليزي توافدت جموع من المبشرين النصارى وقامت بحملة شعواء ضد الإسلام وبدأ القساوسة بالتشكيك في القرآن وفي عقائد المسلمين فقام نخبة من العلماء المسلمين بعد تلك الهجمات فألّفوا الكتب، وألقوا المحاضرات، وخاضوا المناظرات وكان في طليعة هؤلاء العلماء الشيخ الإمام العلامة رحمة الله الكيرانوي مؤلف كتاب «إظهار الحق» الشهير الذي لم ينسج على منواله ومؤسس المدرسة "الصولتية" في مكة المكرمة ومساعدته الدكتور وزير خان والشيخ الإمام محمد قاسم النانوتوي المتوفي سنة ١٢٩٧ هـ ومؤسس «جامعة ديوبند الإسلامية» في الهند والشيخ محمد علي المونجيري مؤسس «ندوة العلماء» بلكناؤ، و«الجامعة الرحمانية» بمونجير، والشيخ عنایت رسول الجريا كوتي وآخرون.

ثم انضم الهندوس أيضاً إلى النصارى في الهجوم على معتقدات المسلمين واتخذت الاجتماعات المشتركة عنوان: «مهرجان معرفة الإله» (ميله خدا شناسي) يشارك فيه الجماهير من أتباع الديانات الثلاثة: الإسلام،



المسيحية، الهندوسية. وكانت لهذه المهرجانات صدى واسع فقد كانت مناظرات شعبية يحاول فيها كل فريق إظهار تفوقه وبراعته على الآخرين.

وكان الشيخ محمد قاسم النانوتوي يتمتع بذكاء خارق، وقدرة نادرة على إقامة أدلة قوية وبراهين دامغة وكان نتيجة ذلك ظهور كتب مثل «مباحثة شاهجانفور» وانتصار الإسلام، وحجة الإسلام، و«قبله نما» وهي تزخر بأدلة عقلية على اثبات التوحيد، ووجود الخالق وإثبات النبوة والرد على الإلحاد، والشرك، ودحض مفتريات الأعداء.

فكان شأن هؤلاء العلماء شأن الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه: «الجواب الصحيح في الرد على من بدل دين المسيح» والإمام ابن القيم رحمه الله في كتاب «هداية الحيارى في الرد على النصارى» مع اختلاف الزمان والمكان وتنوع الأدلة والبرهان، وكان من أنجح المناظرين وأبرعهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي هزم القسيس «فندر» وأحمد حسن ديدات الذي هزم «سواغارت».

أما الحوار الذي تتطلبه الظروف الراهنة والذي دعا إليه خادم الحرمين الشريفين وتبنته رابطة العالم الإسلامي مشكورة فهو يختلف عن روح المناظرات الدينية وطبيعتها.

إن هدف الحوار هو صد الفتنة والحيلولة دون هجمة شرسة ومنع الإساءات المتكررة ضد الإسلام وضد نبي الرحمة ﷺ.

وإن انقاذ ما يمكن انقاذه هدف نبيل وإن حث أتباع الديانات والفلسفات الوضعية على أن يجتمعوا حول طاولة الحوار على اختلاف وتباين المعتقدات



للبحث عن سبل التعايش الآمن مطلوب شرعا وعقلا.

وإيجاد عالم يسود فيه السلام ويستطيع أن يعيش فيه الإنسان من غير خوف من تفجير أو تدمير ومن قتل بغير حق أو إرهاب، وإيجاد مجتمع إنساني يحرص كل فرد منه على إيصال الخير إلى غيره ولا يشبه غابة موحشة يريد كل كائن منها افتراس من تجده أمامه.

إن مثل هذا الحوار يهدف إلى دعوة الناس إلى السلام الذي يدعو إليه الإسلام، والاتفاق مع أتباع الفلسفات الوضعية على حفظ الأنفس والأعراض، والتعاون على حفظ العقول والأديان والأموال، وإن صيانة هذه الأشياء من الإعتداء عليها هي من مقاصد الشريعة الإسلامية.

وخلال الحوار مع أتباع الفلسفات الهندوسية والبوذية يمكن تنفيذ تلك الإشاعات المغرضة التي تم ترويجها بهدف توسيع هوة الخلاف بين المسلمين والهندوس والبوذيين بأن الحكام المسلمين مارسوا الظلم والتعسف ضد الهندوس فقاموا بقتل الرجال وسبي النساء والأطفال وهدم المعابد والأصنام، وقد تسربت هذه الإشاعات المغرضة إلى بعض كتب المناهج الدراسية ما يؤثر سلباً على الجيل الجديد من الهندوس ويثير حفيظتهم ضد المسلمين مع أن الحقائق التاريخية تفند تلك الأكاذيب وأن المنصفين من المؤرخين غير المسلمين من أمثال البروفيسور «رام شرما» و«تارا شندر» و«بي إن باندي» يؤكدون أن تعامل الحكام المسلمين مع الهندوس كان بمنتهى العدل طوال فترة حكم كلي أو جزئي للمسلمين منذ عصر محمد بن قاسم الثقفي ٧١١م إلى نهاية حكومة بهادر شاه ظفر آخر ملوك المسلمين في عام ١٨٥٧م



ولم يتم إرغام أحد على قبول الإسلام لأن الإسلام لا يقر بذلك ولأن وجود الأكثرية الهندوسية حوالي دلهي ولكناؤ، وأحمد آباد وأكبر آباد وغيرها من العواصم أكبر دليل على ذلك.

كما أن المؤرخ الإنكليزي المعروف «سر تامس آرنلد» في كتابه دعوة الإسلام (Preaching Of Islam) يثبت ذلك بأدلة واضحة أن المسلمين لم يجبروا الهندوس على قبول الإسلام.

لذا ينبغي أن يفتح باب الحوار وحول كافة النقاط الحساسة وفي ضوء المعلومات والوثائق الدقيقة وفي جو التفاهم بين المتحاورين.

ضرورة الحوار:

إن الحوار بين الحضارات وكذلك بين ممثلي الأديان والمذاهب وأتباع الفلسفات الوضعية ضرورة إنسانية ملحة لأننا نعيش في عصر اشتد فيه الصراع بين الشعوب، وانتشر النزاع بين الأمم، وتراجعت فيه القيم الإنسانية: العدل والصدق والمساواة، مع أن هذا العصر قد تكاثرت فيه وسائل الإقتراب والاتصال وأصبح فيه العالم بمثابة قرية صغيرة وزادت فيه قدرات الإنسان على احتواء المسموعات والمرئيات والمنقولات عبر الأثير والمرسلات على جناح الشبكات العنكبوتية وكان من مقتضيات هذه الثورة الصناعية والمعلوماتية أن تسود في العالم مبادئ التعاون والتفاهم وظروف التصالح والتعايش.

إن الإسلام رسالة السماء ودين البشرية جمعاء وإن نبي الإسلام أرسل



رحمة للعالمين وإن القرآن الكريم يحث على مبدأ الحوار بين أهل الديانات المختلفة ويدعوهم إلى كلمة سواء.

وإن الحوار مع أتباع الفلسفات الوضعية الذين يؤمنون بالهندوسية أو البوذية أو الجينية أو السيخية أو الكنفوشيوسية أو الطاوية أو الشنتو وغيرها ويتواجدون بكثافة في الهند والصين واليابان وغيرها يمكن أن يكون في مجالات عديدة فهناك تاريخ حافل بالتعاون مع اختلاف المعتقدات والأفكار أو الفلسفات. إن الحوار يختلف عن " المناظرات " حيث إن المناظر يحرص على أفحام الخصم بينما يكون المحاور حريصاً على اقناع من يجري معه الحوار وهو الأمثل في هذا العصر.

إن الذين يتبعون الفلسفات الوضعية مثل البوذية والهندوسية لا يستهان بعددهم فهم معظم سكان الهند والصين واليابان وتأثيرهم في ما يشهده العالم من أحداث سياسية واجتماعية واقتصادية خطيرة، فالصين بمبادئها الشيوعية وشعبها البوذي وكذلك اليابان بصناعاتها الفائقة مع تمسك شعبها بالبوذية عموماً من الدول العملاقة، والهند بتراتها وعدد سكانها وانتعاشها الاقتصادي من الدول الناهضة والمؤثرة لذا يجب البحث عن نقاط الاتفاق والاختلاف بين ما يؤمن به شعوبها وبين مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. فممن يجب التحاور معهم الزعماء وذوو النفوذ من الهندوس والبوذيين وغيرهم وذلك حول النقاط التالية:

- إمكانية التعايش الآمن مع أتباع الديانات الأخرى خاصة مع المسلمين.
- الاتفاق حول الآداب والأخلاق المتفق عليها بين كافة أهل الأديان



- والمذاهب ودعوة عامة الناس وجماهيرهم إليها.
- التركيز على المبادئ الإنسانية وإبراز قيمة حياة الإنسان حتى لا تهدر دماء الناس من أجل شجرة أو بقرة.
 - التعاون مع كافة أهل الأديان في إسداء الخير إلى الإنسانية وفي مجالات إغاثة المنكوبين ومساعدة المهوفين من خلال مؤسسات طبية واقتصادية خيرية مشتركة خاصة في الأزمات الكبيرة مثل الحروب والفيضانات والزلازل.
 - التوقف عن الإساءة إلى المقدسات الدينية مثل القرآن، والرسول ﷺ والكعبة المشرفة.
 - تكوين اتحاد عالمي للديانات والفلسفات الوضعية من أجل مواجهة التيارات العلمانية، والإباحية الأخلاقية التي ترفضها الفطرة الإنسانية، وتستنكرها كافة الأديان والفلسفات ذات مصداقية.
 - إبراز جوانب الرفق من تعاليم الأديان حفاظاً على السلام والمناخ الآمن من أجل التطور الإنساني والتنمية البشرية الشاملة.
 - إيجاد أرضية مشتركة للتعاون بين أهل الملل المختلفة والتعاون بين أهل الديانات المختلفة من أجل تحقيق السلام العالمي.
 - وهناك حاجة إلى عقد لقاء مع زعماء البوذيين والهندوس خارج الوطن العربي.
- إن مواصلة الحوار مع أهل الأديان وأتباع الفلسفات الوضعية سوف تفتح قلوباً غلغاً وتسمع آذاناً صماً وتبصر أعيناً عمياً لقبول الحق والصدق بتوفيق من الله سبحانه وما ذلك على الله بعزيز.



كشف المراجع

- ١ - تاريخ الإسلام في الهند، د. عبد المنعم النمر
- ٢ - أديان الهند الكبرى، د. أحمد شلبي
- ٣ - ثقافة الهند، مجلة حكومية
- ٤ - حضارة الهند، غوستاف لوبون
- ٥ - دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي
- ٦ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد
- ٧ - بوذا الأكبر، حامد عبد القادر
- ٨ - الأدب الهندي المعاصر، محي الدين الألوائي
- ٩ - المعتقدات الدينية لدى الشعوب، إمام عبد الفتاح إمام
- ١٠ - فلسفة الهند القديمة، عبد السلام الرامفوري، أبو الريحان البيروني
- ١٢ - الأديان الحية، أديب صعب
- ١٣ - المقدمة، ابن خلدون
- ١٤ - الفكر الصيني، ترجمة: عبد الحليم سليم
- ١٥ - البوذية، هنري ارقون
- ١٦ - الديانات الوضعية الحية، د. محمد العربي



- ١٧- العقل والنقل للعثماني
- ١٨- قصة الحضارة، ويل ديورنت
- ١٩- انجيل بوذا، ترجمة: سامي سليمان
- ٢٠- البوذية، هنري أرفن
- ٢١- سيرة السلطان تيبو، محمد إلياس بتكلي
- ٢٢- المناظرة الكبرى، رحمة الله الكيرانوي
- ٢٣- الهوة المتزائدة، د. رفيق زكريا
- ٢٤- دعوة الإسلام، البروفيسور آرنلد، وكتب أخرى ذات صلة بالموضوع.

